الحجّ ومكّة المكرّمة

في كتابات المكيّين (٢)

أ. حسين محمد بافقيه/ أ.د. أبوبكر أحمد باقادر

... و كانت الاستجابة لنداء إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِيَّتِي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عندَ بيتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إليهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾.[١]

بداية التدافع البشري نحو مكة المكرمة، بقصد الحج وحدَه، وبقصد الحصول على منافع اقتصادية وثقافية واجتماعية، وهو ما لا يتعارض مع المفهوم العميق للحج، المتحدِّد

---

١. سورة إبراهيم : ٣٧ .

في قوله تعالى: ﴿**وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَىَ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فجٍ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلىَ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرِ**﴾.[1]

ما أدّى إلى أن يضايق هؤلاء القادمون إلى الأماكن المقدّسة أهل مكة في رزقهم و معيشتهم، ببقائهم بعد الحجّ، بهدف الانتفاع من حركة البيع و الشراء في مكة المكرّمة، فاضطر عمر بن الخطاب أن يقف، بعد انتهاء الموسم، منادياً «يا أهل الشام شامكم، و يا أهل إليمن يمنكم»، و «ذلك لئلا يكثر المجاورون فيستأثروا بما لهم من الثروة بأرزاق أهل مكة فيضيقوا...».[2]

غير أنّ هذا الإجراء الذي استنّه الخليفة الثاني لم يكتب له الاستمرار في التاريخ، لأسباب؛ منها ما جاء في الأثر من فضل المجاورة في مكة المكرَّمة، و اشتداد الأزمات التي حاقت بالعالم الإسلامي، بسبب الحروب و الفتن، فكان الحرمان الشريفان ـ وبخاصة مكة المكرَّمة ـ ملاذاً للناجين بأنفسهم من الهلاك، و طلباً للأمن و اللياذ به، ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً**﴾؛ و بناء عددٍ من السلاطين و الولاة و الأثرياء أربطة ومدارس خاصة بأبناء جلدتهم من فقراء الحجّاج، الذين يجدون أنفسهم، بعد حين من الدهر، قد استوطنوا الديار المقدّسة؛ فضلاً عن شرف مجاورة البيت الحرام، الذي كان مطمح جيلٍ من العلماء و الأدباء الذين لم يكن لهم من مطمع و مطمح سوى أن ينادوا بـ «جار الله»!

و أدّى هذا التدافع البشري المستمر على مكة المكرَّمة، أن غدت مدينة بامتياز، وذلك لعدّ المدينة ـ أيّ مدينة في العالم ـ مجتمعاً من الغرباء، يحافظ على وجوده، في الوقت الذي يحفظ فيه استقلال الآخرين، ما يؤدّي في النهاية، إلى أنْ تغدوا تلك المدن، نموذجاً

---

١. سورة الحج: ٢٧ـ ٢٨ .

٢. العامودي، محمد سعيد، من تاريخنا، الدار السعدية، جدة : ١٧٩؛ الردادي، عائض، الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري، ط١ جدة: مكتبة المدني، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، : ٨٦ .

للتعايش السكّاني، و التثاقف المستمر. فمكة المكرَّمة ـ كما رآها محمد لبيب البتنوني ـ «يجدر بها أن تسمّي بالمعرض الإسلامي»،[١] لكثرة الأزياء، و تعدُّد الأجناس فيها في أثناء موسم الحج، ومن ذلك الانصهار العرقيّ، و الامتزاج السُّكاني، غدا أهل مكة المكرّمة ـ كما يرصد البتنوني ـ «خليطاً في خَلْقهم، خليطاً في خُلُقهم: فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم وداعة الأناضولي، وعظمة التركي، واستكانة الجاوي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدّة المغربي، وبساطة الهندي، ومكر اليمني، وحركة السوري، وكسل الزنجي، ولون الحبشي، بل تراهم جمعوا بين رفعة الحضارة و قشف البداوة: فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، و ضعته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأنَّ طبيعةَ البداوة تغلّبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلّفه في حضرتك».[٢]

والذي يسترعي الانتباه في هذا التدافع البشري في مكة المكرَّمة، موقف المكيِّين من الآخر، القادم إلى ديارهم، بقصد الحج والعمرة، أو بقصد المجاورة، فمكة المكرَّمة تتكوَّن من نسيج فسيفسائيّ بشريّ، تشكّل عبر العصور في هذه الملامح المكيّة المؤتلفة، على الرغم من انبنائها من عناصر مختلفة، ولكنَّها تصبُّ في نهاية الأمر في شخصية مكة المكرَّمة وعبقريَّة المكان فيها.

فعامّة أهل مكّة المكرَّمة، في نظر عددٍ من الرحالة، وبخاصة البتنوني ورفعت باشا، مجموعة من الأغراب،[٣] ولذا فإنهم ينظرون إلى أهل مكة المكرَّمة، بحسب أصولهم، دون أن يتنبَّهوا إلى الطبيعة الفسيفسائية التي جعلت المكيِّين أنفسهم يتجاوزونها؛ فمكة المكرَّمة ـ يقول محمد عمر رفيع ـ : «أشبه بباقة من الزهر، فيها من كلّ نوع ولون وردة، ويتفاضلون

١. الرحلة الحجازية، الطائف، ط٣ (مكتبة المعارف، د.ت)، : ٤٠ .

٢. السابق : ٤٢ .

٣. البتنوني، الرحلة الحجازية:٤٠ ، ٤١؛ رفعت باشا، إبراهيم، مرآة الحرمين، (د.ن، د.م، د.ت)،١: ٢٠١.

ويتمايزون فيما بينهم بالعراقة في الهجرة، وإيغالها في القدم، فمن كانوا أعرق إقامة، عدوا أنفسهم هم أهل مكَّة، ونبذوا حديث الهجرة، ووصفوه بأنه آفاقي...».[١]

ومع سرعة خلع صفة المكّية على من حلّ بمكة واستوطن بها أو جاورها؛ فإنَّ مقولة «يا غريب بلادك»! ظلّت ملازمة لأهل مكة المكرَّمة، ومنطقة الحرمين الشريفين، بصورة عامَّة. ومن ذلك تذمّر محمد كبريت المدني ـ في القرن الحادي عشر الهجري ـ من كثرة الوافدين على المدينة المنوّرة، وإيثارها إياهم على أهلها،[٢] لتصبح هذه المقولة عالقة في ذهن أهل مكة، وبخاصة حينما تشتدُّ السَّنة، بسبب الجفاف وشحّ إقبال الحجيج، فلا تكفي الجراية التي يفرضها السلطان العثمانيّ لأهل مكة، لأنّ المجاورين و الآفاقيين يزحمون المكيِّين، حتى في الصدقات التي ترد إليهم.

فلا غرو أن يلهج المكيّون بتلك المقولة، وبرصيفتها «شور الأمانة لا تبات الليلة»،[٣] و كأنَّ القانون غير المدوَّن لدى المكيين، هو أننا نحبّ الأغراب، ولكن شريطة أن لا يستقرّوا في ديارنا!

وتتأكد علاقة المواطَنة والانتساب إلى مكة المكرَّمة، فضلاً عن تقديم خدمات الحجّ لحجّاج بيت الله الحرام، في حساسيَّة المكيِّين في أن يطلَق على أحدٍ منهم لقب «حاج»! إذا قام بأداء هذه الفريضة، هذا اللقب الذي يحرص على التحلّي به كثيرٌ ممن حجَّ البيت الحرام؛[٤] وذلك لكون هذا اللقب يحمل بعض دلالات الغريب، والطارئ على البلاد، إضافة

---

١. المرجع السابق : ١٨، ١٩ .

٢. الردادي، عائض، المرجع السابق ١ : ٨٧ .

٣. الكردي، محمد طاهر، التاريخ القويم لمكة و بيت الله الكريم، مكة المكرَّمة (مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م)، ٥ : ١٩٩ نقلاً عن مخطوطة إفادة الأنام لعبد الله الغزي المكي.

٤. هرخرونيه، سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، (نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م)، : ٤٠٨، البتنوني، المرجع السابق : ٣١٠، ٣١١.

إلى ما يحمله هذا اللقب، في سياقه التداوليّ الشعبيّ، من معاني الغفلة والسذاجة التي عادة ما يتحلّى بها الحجاج، لذا فإنّ المكي حينما يفاصل صاحب المتجر، يؤكد عدم سذاجته وغفلته وإمكان خداعه، بقوله: «أتظنّني حاجًّا»! وهذا مغاير للدلالات التكريمية التي تدور في حقل مفردة «حاج» في عدد من الدول الإسلامية، والتي تعدّ مطمحاً لحجّاج تلك الديار! «لذا كان ولا يزال لقب الحاجّ عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلّى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى، وهو يدلّ على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبّان، فإذا قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعني يا أيها الشهم الشجاع، أمّا إذا لقبت به الشيوخ والكهول فإنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذي تحمَّلوا في طريقه الأهوال التي تشيب منها الأطفال».[١] بل كان المستعمر الهولنديّ في إندونسيا يفرق من لقب «حاج» الذي يفاخر به الحجاج الجاوا ـ آنذاك ـ ويساوي بين هذا اللقب و كلمة «عالم» في المخيال الرمزي الإسلامي، حتى لو كان ذلك الحاج لايفقه كثيراً من أمور الدين![٢]

هيَّأ الحج بوصفه جماع الحياة في مكة المكرَّمة كونها «ملتقى الغرباء»، و أثَّر هذا الملتقى في التثاقف الاجتماعي والفكري، والتبادل الاقتصادي والتجاري...، ومركز التقاء شرق العالم الإسلامي بغربه، بدءاً من عدّ هذه المدينة المقدَّسة النادي السنوي لالتقاء علماء الأمَّة الذين قد لا تتاح لهم الفرصة للالتقاء بسوى هذه المدينة، «فكم من عالم تشوَّق لرؤية عالم آخر وحال دون مُنْيَتِه بعد الشُّقة حتى إذا ما قدم الحجاز تحقق له أمله، و كم من عالم آخر في الحجاز وفَّر عليه مقامه فيه مشقَّة الرحيل إلى أحد الأقطار الاسلاميّة للأخذ عن عالم سرتْ بخبر علمه الركبان»،[٣] وقد غدت فضيلة كتابية أن يولع الرحالة القادمون إلى

١. البتنوني، المرجع السابق : ٣١٠، ٣١١.
٢. هرخرونيه، المرجع السابق :٤٠٨.
٣. الردادي، عائض، المرجع السابق ١ : ١٠٢.

الحرمين الشريفين ـ ومكة المكرَّمة بوجه خاص ـ بذكر العلماء الذين التقوهم، وذكر مناقبهم، والكتب التي درسوها عليهم، كما فعل ذلك ابن بطوطة، وابن رُشَيد، والعبدريّ وآخرون، ولتصبح المجاورة في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة منقبة من مناقب العلماء والأدباء، كما في حالة الإمام البخاري الذي روي عنه قوله: «صنَّفتُ كتابي الجامع في المسجد الحرام»، وجار الله الزمخشري، الذي تلقب بهذا اللقب لمجاورته بيت الله الحرام، الذي أنجز مؤلفه العظيم «الكشّاف عن حقائق التأويل»، «بين ظهراني الحرم، وبين يدي البيت الحرام، حتى وقع التأويل حيث وجد التنزيل»،[1] إلى أن يصل عدد المجاورين من العلماء و الأدباء المئات في القرنين التاسع و العاشر الهجريين، كما تنبئ بذلك كتب التراجم، وبخاصة «الضوء اللامع» للسخاوي، و «البدر الطالع» للشوكاني، و «الكواكب السائرة» للغزّي، و «درة الحجال في أسماء الرجال» لابن القاضي، و «ريحانة الألبا» للخفاجي،[2] وأن يصبح المجاورون من السمات الثقافية الأصيلة لمكة المكرَّمة، إذ تولّى عددٌ منهم «إمامة الحرم المكي، والأذان، والقضاء، والتدريس، والفتوى»،[3] وأسهموا في تأسيس المدارس والمكتبات والأربطة، والمشاركة في إنعاش حركة التأليف فيها، ومروراً برؤية عددٍ من مفكري عصر النهضة إلى مكة المكرّمة بوصفها الملاذ والمنقذ للعروبة والإسلام في العصر الحديث، كما في كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي؛ ووصولاً إلى دور علماء الحرم المكي الشريف والمطوفين في حلّ الكثير من النزاعات السياسية،[4] وتدشين النهضة العلمية في عدد من الدول الإسلامية، وبخاصة إندونيسيا و ماليزيا، ولعل من أبرز دلائلها «مدارس نهضة

---

١. أبوسليمان، عبدالوهاب، الحرم الشريف: الجامع والجامعة، (نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١٧ هـ)، :٧.

٢. الردادي، عائض، المرجع السابق ١: ١٢١.

٣. العبيكان، طرفة، الحياة العلمية، و الاجتماعية في مكة في القرنين السابع و الثامن للهجرة، (الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م) : ١٤٤.

٤. أبو سليمان، المرجع السابق : ٢٤، ٢٥.

العلماء بإندونيسيا التي يبلغ تعداد مدارسها ما يربو على أربعمئة مدرسة لمختلف المراحل العلمية ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية العالية، وهي واحدة من مؤسسات علمية كثيرة تملأ البلاد الإندونيسية، يرجع الفضل في تأسيسها إلى تشجيع فقهاء الحرم الشريف وتوجيههم لتلاميذهم هناك»،[١] ليصل التأثير العلمي والثقافي لعلماء مكة المكرَّمة إلى سلاطين تلك الدول والولايات وأمرائها ووزرائها وقضاتها الذين تلقوا طرفاً مهمّاً من تعليمهم في مدارس مكة المكرَّمة، وبخاصة «الصولتية».[٢] بل إنّ عدداً من حركات التحرُّر الوطني في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي انطلقت من جوار البيت العتيق، ولعل من أهمّها «شركة الإسلام» الإندونيسية، وهي أول حزب إسلامي طالب بحقوق المسلمين، استمدَّ روح الجهاد من جوار الحرم الشريف».[٣]

وانتهجت مكة المكرَّمة، منذ عصورها الأولى، التي تمتدُّ إلى الجاهلية، نظام تقسيم العمل، ليظل هذا النظام معمولاً به، حتى وقت قريب، ممثِّلاً ذلك التقسيم صورة المهن والنقابات والحرف في المجتمعات العربية والإسلامية، لمرحلة ما قبل العصور الحديثة؛ وهذا ما كانت عليه الحال في المجتمع المكّي الذي تكوَّن، عبر قرون متتالية، من عناصر سكّانية، بحكم حركة الحج، والمجاورة، ومن ثم التوطّن والاستقرار، ليؤدِّي هذا النسيج السكانيّ المتنوِّع إلى توزُّع العمل في مكة المكرَّمة، الذي يعود في غالبه إلى الدوران حول مركزية الحج دينيًّا واقتصادياً، ليتأثر أهل مكة ـ فيما يذكر هرخرونيه ـ «تأثّراً بالغاً بالحرفة الرئيسية في مكة، ألا وهي الاستفادة من مواسم الحج كلّ عام. وتعتمد حياة أهل مكة

١. أبوسليمان، المرجع السابق : ١٥.
٢. أبوسليمان، المرجع السابق : ١٦.
٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ٣١٢ ؛ أبوسليمان، المرجع السابق : ٢٠، ٢١.

اعتماداً مباشراً على خدمة ضيوف الرحمن القادمين إلى البلد المقدّس...»،[١] ليتفرَّع عن الحج وخدماته، التقسيم الاقتصادي للعمل؛ فالهنود يعملون في التجارة؛ وبخاصة البهارات والأقمشة،[٢] والشوام في تجارة الأحاريم والمكسَّرات والفواكه المجففة،[٣] والحضارمة في تجارة السكّر والشاي والحبوب[٤]، والبخارية في تجارة أدوات الخياطة،[٥] في حين يعمل أبناء البادية بتأجير جمالهم بين جدة و الطائف و المدينة المنوَّرة.[٦]

غير أنّ لمهنة «الطوافة» المكانة الكبرى في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمكّة المكرَّمة؛ وهي مهنة ذات تأثيرٍ عميق، لاتصالها ـ في أساس نشأتها ـ بتطويف الحجاج بالبيت العتيق، وكانت بدايتها متصلة بتطويف سراة القوم وكبارهم،[٧] ليصل بها الأمر إلى أن تغدو العمود الفقري للأعمال المتعلقة بالحج، ولتشمل جميع الحجّاج القادمين إلى البيت الحرام، ويطاولها كذلك نظام تقسيم العمل، منذ عام ١٣١٨ هـ ليصبح لكلّ مجموعة من البلدان مطوف خاصّ بها.

وأثَّر الحج والمهن المرتبة به، وبخاصة الطوافة، في حياة المكيّين، ونظرة حجاج بيت الله الحرام إليهم، إذ أكسب اتصال المكيين بالأجناس واللغات واللهجات المختلفة، معرفة واسعة بأحوال العالم الإسلامي، ولغاته، وأطعمته، وعاداته وتقاليده؛ التي وحدت طريقها إلى النسيج الاجتماعي والثقافي لمكّة المكرَّمة، وحواضر الحجاز بشكل عام، خاصَّة أنّ تنظيمات

---

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٦٤.
٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٥٥ ؛ رفيع، محمد عمر، المرجع السابق :١٦١.
٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٦١.
٤. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق.
٥. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٦٣.
٦. هرخرونيه، المرجع السابق : ٥٧.
٧. سباعي، أحمد، تاريخ مكة، (نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، : ٣٣٧.

الحج ـ بسبب حركة النقل والمواصلات ـ كانت تسمح بأن تقضي طوائف مختلفة من الحجاج ما يقرب من سبعة أشهر في رحاب مكّة المكرَّمة، ملتحمين بالنسيج الاجتماعي لأهلها، ومتصلين بالحياة الدينية والاجتماعية والثقافية في البلدة المقدَّسة، إذ كان الانضمام إلى الحلقات العلمية الكبرى في المسجد الحرام حلم عددٍ كبيرٍ من طلبة العلم من حجاج بيت الله، والذين يجعلون جانبًا كبيرًا من وقتهم وفراغهم الانتماء إلى تلك الدروس العلمية التي يقوم عليها أكابر علماء مكّة المكرَّمة، في ذلك الوقت.

يقول محمد عبد الحميد مرداد: «كان الحجاج الوافدون إلى بيت الله الحرام في ذلك الحين يتعلمون قراءة القرآن مع التجويد، لأنهم كانوا يصلون من شهر رجب، وخاصة سكّان جزر جاوه وبورنيو وسومطره والهنود والبنغاليون وسكّان الهند الصينية الفرنسية والسياميّون وسكّان جنوب إفريقيا وأهل بخارى وشبه جزيرة القرم والأناضول وغيرهم. وكانوا يدرسون على يد نخبة من علماء مكة وقرّائها...

وكان المسجد الحرام صورةً حيةً لجميع أدوار التعليم، إذ بعض الحجاج يعشق الاستماع إلى الفقه، وبعضهم إلى الحديث والتفسير، وبعضهم يعشق تعلّم اللغة العربية...».[١]

وكفلت الطوافة، بصفتها مهنة عائلات و أسر، اشتغال جميع أفراد أسر المطوفين في أعمال الحج، وهي فرصة أتاحت معرفة أكثر بالحجّاج وأسرهم، طوال الأشهر الطويلة التي يقضونها في جوار البيت العتيق، عن طريق الزيارات المتبادلة بين أسر المطوفين والحجاج، وتبادل الهدايا، وبخاصة من كتب لهم الحج عدّة مرّات،[٢] وقيام المطوفين بمهامّ اجتماعية ذات طبيعة شخصية؛ كعقد زيجات للحجاج، أو الحج بدلاً من أقاربهم الموتى أو الأحياء،[٣]

١. رحلة العمر : ٣٨٩.
٢. مرداد، محمد، المرجع السابق : ٤٠٣.
٣. هرخرونيه، المرجع السابق : ٩٨.

والإسهام في حلّ مشكلاتهم الأسرية و السياسية ـ كذلك ـ .

وأصبح المطوفون بسبب العوائد المالية الطيبة التي يحصلون عليها، وبخاصة إذا كان الموسم كبيرًا، يؤلفون طبقة اجتماعية واقتصادية مهمّة في المجتمع المكّي، الذي يتأسَّس عماده الاقتصادي على الحج وموسمه، حتى غدت مهنة «الطوافة» ـ فيما يشير هرخرونيه في أواخر القرنين الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي ـ حلم شبّان مكة المكرَّمة وفتيانها، «فمنذ نعومة أظفار الطفل وهو يرى هؤلاء المطوِّفين يتمتعون بمنزلة عالية ونفوذ كبير في صفوف المجتمع المكي. وفي كلّ مكان تراهم يأمرون فيطاعون، وحتى مساعديهم (كذا!) يتمتعون بهذه الشهرة في أشهر الحج. حيث ترى شموخ هؤلاء ومظهرهم المتعالي على مختلف فئات الحجاج الذين يمشون خلفهم ويستمعون إلى أوامرهم ويتقيدون بهم في كلّ حركة يقومون بها.

إنّ مظهر الخيلاء هذا يستهوي الكثير من اليافعين، لأنّه يرضي غرورهم من ناحية، كما أنّ جيوب المطوفين ومساعديهم المليئة بالنقود تثير شهية هؤلاء من ناحية أخرى. إنّ المرء يسمع دائمًا بعض هؤلاء الشباب يقول: لو أنني أستطيع جمع نصف قرش من كلّ حاج في سهل عرفات لما وجد فقير ولأصبح الكل أغنياء. ولهذا يفكر هؤلاء الشباب كثيراً في امتهان حرفة الطوافة التي يستطيع المرء من خلالها أن يكسب من المال خلال أسابيع ما لا يستطيع جمعه خلال السنة كلّها»![1]

ويعدّ كتاب محمد عبدالحميد مرداد «رحلة العمر» صورة مقربة للسمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحج والحجاج والمطوفين في مكّة المكرّمة، منذ نحو ثمانين سنة، وبخاصة ما له علاقه بحجاج جزر الهند الشرقية (الحجاج الجاوه)، والعلاقات الإنسانية والاقتصادية الفريدة من نوعها بين الحاج والمطوّف آنذاك.

---

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٢٣٠ ، ٢٣١.

فقد كان الحجاج الجاوه ـ كما يذكر مرداد ـ أغنى الحجاج وأسخاهم، إذا كانوا «عصب الحياة بل الموسم كلّه في الحجاز، وكانوا يمكثون زهاء خمسة أو ستة أشهر، وكانوا أصحاب ثروة، ونقودهم أغلى النقود على الإطلاق».[١] وكانت علاقة المطوِّف بالحاج ـ فيما يذكر مرداد ـ تتجاوز الشأن الاقتصادي أو التجاري، لتصبح علاقة أسرية وثقافية، تشمل أفراد أسرة المطوِّف كافة، بمن فيهم الأطفال الذين يصوِّرهم مرداد، حينما كان في سنّهم، بقوله: «وصرتُ صديقاً للمئات ممن سكن عندنا أو تعلّم أو دُعي إلى وليمة بدارنا، ثم الطلوع والنزول يومياً وردّ السلام والأخذ والردّ مع هؤلاء السكان والاختلاط والاحتكاك والتزاور... وأحياناً يزورنا بعض من هؤلاء السكان، وبعض يطلبون تصحيح القرآن على يد المرحوم العمّ جمال.. حتى أنَّ بعضاً ممن يسكنون بدارنا يطلبون من العمّ أن أكون معلّماً لزوجاتهم وبناتهم لتصحيح القراءة والتجويد..».[٢]

وهذا ما يعني أنّ علاقة مكّة المكرَّمة وأبنائها بحجاج بيت الله الحرام، ليست علاقة «مطوفين وحجّاج»، في مفهومهما التبادلي السطحي؛ فالحاج ـ قديماً ـ لم يكن ليمرَّ بمكّة المكرَّمة مرًّا سريعًا، بل كان يعنيه المكان ومن حلّ فيه، فإذا كان عالماً اجتمع بالعلماء وطلبة العلم؛ وإذا كان تاجراً أسهم في حركة البيع والشراء، وإذا كان من أهل اليسار أفضل على المكيين، وإن كان من عامَّة الناس عرَّف المكيّين على طعامه وشرابه وملبسه.

فللحاج أثر في مكة المكرَّمة لا ينمحي، تنبئ به تلك المدارس والأربطة والتكايا والأوقاف التي كانت هدايا الحجاج لتلك الديار، وكان موسم الحج فرصة كبيرة لكي يتلمَّس سراة الحجاج احتياج بعض الأوقاف والمدارس، إذ لولا مساعدتهم السريعة لتوقف

١. المرجع السابق : ٣٩٥.
٢. المرجع السابق : ٣٩٥ ، ٣٩٦.

عددٌ من تلك المدارس عن أداء رسالتها الجليلة.[١]

ولأهل مكة المكرّمة مكانة خاصَّة في قلوب مسلمي جنوب شرق آسيا، وبخاصة إندونيسيا وماليزيا، تنبئ بذلك المنزلة التي يحتلُّها سراة المكيين وعلماؤهم لدى سلاطين تلك الدول وأمرائها،[٢] وقادت الحركة المستمرّة لحجاج جزر الهند الشرقية أن يتعرّف المكيون بصورة قوية، على طبائع تلك الشعوب، عاداتها وتقاليدها،[٣] خاصة أنّ حجاج تلك المناطق ـ وبخاصة إندونيسيا ـ يتميزون عن غيرهم بالثراء والإقامة الطويلة في مكة المكرَّمة والسخاء، وأنّهم قدموا للحج وطلب العلم، وليس للتجارة.[٤] و وصل حُبُّ الحجاج الجاوا لمكة المكرّمة وأهلها، أنه بمجرد وصوله إليها يقوم الحاج منهم بشراء حلّة مكّية، لكي يرتديها بعد عودته إلى بلاده، رمزاً لأدائه فريضة الحج،[٥] ويغدو ارتداء الزيّ العربيّ في تلك الجزر من الرموز الدينية التي يحبّ أن يظهر بها الحاج الإندونيسي أمام مواطنيه،[٦] ليغدو ارتداء الزيّ العربيّ ذا دلالة سياسية لم يشعر به سوى المستعمر الأجنبي، الذي بات يعرف ارتباط الحج إلى بيت الله الحرام بالنهوض الوطني والسياسي، إذ يشكل لهم ذلك الركن

---

١. يقول محمد عبدالحميد مرداد: «و كان للموسم أثر فعّال بالنسبة لمدرسة الفلاح؛ إذ إن الرواتب على ضآلتها وقلتها لا تعتمد إلاّ على موسم الحج، و كان المدير يطبع رسالة و يبعث بها إلى المطوفين و مشايخ الجاوين ... يدعوهم إلى إحضار الأغنياء من الحجاج في أيام الموسم فيجمعونهم في (المنتزه) ثم يحضر الأساتذة و المدير، فيشرحون للحجاج موضوع المدرسة و حاجتها إلى المساعدة فيتبرعون بما تود به نفوسهم..» : ٥٥٣ .

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٣٧٠.

٣. المرجع السابق : ٣٧٢.

٤. المرجع السابق : ٣٧٢.

٥. المرجع السابق : ٣٧٩.

٦. المرجع السابق : ٤٠٧.

الإسلامي المهيب حلماً لـ «القوّة الدينية و السياسية للإسلام التي كان يسمع بها هؤلاء من خلال التراث الشعبي عن أيام الإسلام الأولى...»،[١] ليسهم من استقرَّ في مكة المكرّمة وجعلها وطناً له في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، في أعمال الطوافة والتجارة، والتدريس في الحرم المكي الشريف، وإصدار المؤلفات الدينية وسواها، ويصبح التأليف باللغة الملاويَّة مصاحبًا للتأليف باللغة العربية في مطابع مكة المكرَّمة.[٢]

ويقسم الحج حياة المكيين إلى «الموسم» ـ أي موسم الحج ـ و «البصارة»، وهي الفترة الممتدَّة من انتهاء الموسم إلى ما يقرب من حلوله في العام القابل، وتتأرجح حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين هذين الزمنين، اللذين يتركان أثراً بالغاً في صفاتهم وعلاقتهم بالحجّاج، أو بمواطنيهم من أبناء مكة ذاتها، فموسم الحج هو عصب الاقتصاد المكي، وقوام حياة المكيين ومعيشتهم، وهو على قصره، مطمح حلم المكيين في سعة رزقهم، وخروجهم من الفاقة، والذخيرة التي يصمدون بها أمام عوادي الزمن وصروفه، ويغدو ترقُّب المستقبل هاجساً مُلحًّا لدى كلّ مكي، يحلم بأن يكون «الموسم» عظيماً، وأن يعم العالَم السلامُ، وأن يظل اقتصاد الدول التي يفد منها الحجّاج قويًّا معافًى. كلُّ ذلك يخرج المكيين عن زمنهم الطبيعي ـ خارج الموسم ـ و يحوّل حياتهم من الدعة، إلى أن ينصرفوا إلى قوام حياتهم ومعيشتهم، بحثاً عن خدمة الحاج، والفوز بأكبر عدد منهم، ولعل ذلك مايجعل «الحاج الورع الذي يتخيل أن كلّ شيء في حالة مثالية في هذا البلد المقدّس يفاجئ حينما يرى السعي المتواصل إلى مزيد من الربح في هذا الموسم. وهذا في واقع الحال أمر طبيعي؛ لأنّ مكة ليس لديها مصدر حيوي للدخل سوى هذا المورد، ولذا نجد أنّ التنافس حول طلب الرزق يزداد كثيراً بدل أن يقلّ. ويجب أن أؤكد هنا أنّ الذي يرى أهل مكة خارج موسم الحج يجدهم عذبي المعشر، مولعين بالمرح، كرماء إلى درجة التبذير، يكرِّسون

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٤٠٩.

٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ٤٨١.

جهودهم لحياتهم الاجتماعية. وإن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد بجانب الخشونة والفظاظة التي عند بعضهم أناساً نبلاء المعشر كريمي الصفات أتقياء ذوي ورع وصلاح».[١]

وما أن ينتهي «الموسم»، حتى تبدأ أشهر «البصارة»، في عرف المكيين، وتُستأنف مواسم أخرى، ملؤها السمر والفرح والتمتُّع بالحياة، حيث تتحوَّل مكة المكرَّمة إلى مواسم متتالية، يختلط فيها الديني بالدنيوي في نسيج عجيب، قوامه القانون المكي غير المسطّر، الذي أشار إليه هرخرونيه ـ أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ـ وهو «أنّ أهل المدينة يعيشون فقط للدين، ومن أجل الدين. (و) أهل جدة .. يعيشون من أجل الدنيا. أمّا أهل مكة فيعيشون من أجل الدين و الدنيا معاً».[٢]

و منذ أن يبدأ حجّاج بيت الله الحرام بمغادرة الديار المقدَّسة، يستعيد المكيون مناسباتهم الاجتماعية التي لا تكاد تنتهي، و لكلّ موسم أكلاته و حلوياته المكّية الشهيرة: فالحليب في بداية العام الهجري الجديد، رمزٌ لسنة بيضاء؛[٣] وفي العاشر منه أكلة «العاشورية» الشهيرة؛ وحتى حينما يتشاءم المكيُّون في آخر أربعاء من شهر صفر، يخرجون في ذلك إليوم إلى البساتين، ويصنعون فيه «العيش باللحم»!؛[٤] و «الشعبنة» في شهر شعبان؛[٥] وتبدأ في أشهر ربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى مناسبات الزواج،[٦] فضلاً عن المواسم الدينية التي تستمر طوال العام؛ كـ «مولد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله» في الثاني عشر من شهر

---

١. هرخرونيه، المرجع السابق : ٦٤.
٢. هرخرونيه، المرجع السابق : ١٤٢ ، ١٤٣.
٣. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٢٩.
٤. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٣٠.
٥. رفيع، محمد عمر، المرجع السابق : ١٣٨.
٦. هرخرونيه، المرجع السابق : ١٢٧.

ربيع الأول؛[١] و العمرة الرجبيَّة، وفي ذكرى الإسراء والمعراج؛ وزيارة المدينة المنوّرة في شهر رجب،[٢] في ركب مكيّ مهيب استمرَّ إلى ما قبل عدَّة عقود من الزمان.

و يبدو أنّ ولع المكيّين بالمناسبات الاجتماعية يعود إلى قرون ماضية، فقد حفظت لنا كتب التاريخ والرحلات طرفاً من أفراحهم و ألوان سمرهم، على ذلك النَّحو الذي ألمح إليه ابن جبير في القرن السادس الهجري، و من ذلك تفنُّن المكيّين في صنع الأطعمة والحلويات التي سلبت لُبَّه و فضَّلها على ما يوجد في بلدان أخرى،[٣] وهو ما تشتهر به مكة المكرَّمة في وقتنا هذا، دون مدن المملكة الأخرى! فضلاً عن تفنّنه في ألوان الأطعمة الشهيرة، التي يعود عددٌ منها إلى أكثر من خمسة قرون، كما تسجِّل ذلك تواريخ مكة المكرَّمة، وبعض هذه المأكولات معروف متداول في عصرنا هذا كـ «المندي والفتوت والهريسة». ولعلّ من أطرف ما يتَّصل بهذا الموضوع، أنه لشدة حبّ المكيين لعقد الولائم، تمّ تخصيص وقف لتيسير أمر هذه الولائم، «تستعار منه أدوات السفر والمفروشات للولائم والوضائم»،[٤] وذكر محمد طاهر الكردي المكي: «أنّ بعض البخاريين من سكّان مكّة المشرَّفة قد أوقف لله تعالى ما يملكه بمكّة وهو بستان البخاري المشهور بمحلّة المسفلة لعمل الولائم لكلّ من أراد ذلك، ولقد جعل فيه من أدوات الطبخ ولوازمه من القدور والتباسي والصواني والصحون والملاعق وغيرها شيئاً كثيراً، وذلك بعد سنة ١٢٠٠ هجرية..»![٥]

وتبعاً لانفتاح مكة المكرَّمة على العالم بأسره، بسبب الحج، استطاع المكيون منذ

---

١. المرجع السابق : ١٢٤.

٢. المرجع السابق : ١٤٥.

٣. رحلة ابن جبير، (القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٠ م)، : ١١١.

٤. من تعليقات الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي، نقلاً من محمد طاهر الكردي، المرجع السابق ٦ : ١٨٠ ، ١٨١.

٥. المرجع السابق ٦ : ١٨٥.

القدم، التغلُّب على طبيعة بلادهم القاسية، فغدا الوادي غير ذي الزرع مدينة كونية، يُجْلَبُ إليها خراج كلّ شيء! فهي الملتقى السنوي للمسلمين، وهي ـ كذلك ـ مصفاة لغات الشعوب الإسلامية ولهجاتها، وطعامها وشرابها وأزيائها. فأزياؤها ـ فيما وصف البتنوني ـ «مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الإسلامية: عمامة هنديَّة، وقفطان مصريّ، وجُبَّة شاميّة، ومِنطقة تركية...»![1] وطعامها يمثِّل نموذجاً للمطبخ الإسلاميّ، الذي قد يجتمع في وجبة واحدة: فالفول مصريّ، والسمن حضرميّ، والتميز بخاريّ، ولكنَّه في الأخير، ليس إلاّ وجبة مكية ـ وإن شئت حجازيّة ـ تتميز بنكهتها الخاصَّة، وخلطتها السرّية التي لا تنتمي إلى جذورها إلاّ على سبيل المجاز، أو ما يشبه المجاز، وهو ما لعلّه أن يكون سِرًّا من أسرار مكة المكرَّمة التي حباها الله ـ جلَّت قدرته ـ بهذه السمات الكونيّة، في كلّ شيء، ﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾.[2] ﴿**أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾.[3]

و «برهان ذلك ـ يقول ابن جبير ـ فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أنّ أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كلّ مكان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلاّ أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد ـ فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والعنبر والعود والعقاقير الهنديّة، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانيّة

---

١. الرحلة الحجازية : ٤٢.

٢. سورة إبراهيم : ٣٧ .

٣. سورة القصص: ٥٧ .

والبضائع المغربيّة إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ـ ما لو فُرِّق على البلاد كلّها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعمَّ جميعها بالمنفعة التجارية.

كلّ ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها ـ مع طول الأيام ـ من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر، إلاّ وهي موجودة فيها مدَّة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، وآية من آياتها التي خصها الله بها»![1]

واستطاعت مكة المكرَّمة، وقد أحاطت الصحراء بها من كلّ جانب، أن لا تجعل للصحراء من أثر بيِّن في تكوينها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي واللغوي، فظلَّت محافظة على مدنيتها وتحضُّرها طوال العصور، وكأنّ جامع ملامحها، عبر التاريخ، ظَرف أهلها ـ الذي هو أصل لظرف الحجاز ـ وولعهم بالتأنُّق في الملبس والمأكل والمشرب،[2] وهي من السمات المتماثلة في المجتمع المكّي، والتي استرعت نظر الرّحالة الشهير ابن بطوطة، حين أشار إلى تأنُّقِهم في الملابس، وكثرة استخدامهم للطيب، سواء لدى رجالهم، أو نسائهم اللاتي كُنّ رموزاً للأناقة منذ قرون طويلة، فنساء مكة ـ يقول ابن بطوطة ـ «فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهُنَّ يكثرن التطيُّب حتى إنَّ إحداهنَّ لتبيت طاويةً وتشتري بقوتها طيباً! وهُنَّ يقصدن الطواف بالبيت في كلّ ليلة جمعة فيأتين في أحسن زيّ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهنّ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً...»،[3] فضلاً عن ذوقهم الرفيع في بيوتهم ومجالسهم، وتعدُّد مشاربهم ومآكلهم. ويجمع شملَهم رباط وثيق من التكافل الاجتماعي، ومساعدة الغريب، وهي فضيلة تأصَّلت في المجتمع المكي ـ منذ الجاهلية، وإلى وقتنا الحاضر ـ وغدت مأثرة من مآثره، التي لهج بها الرحّالة، وبخاصة ابن بطوطة الذي غمره المكيُّون بسماحتهم وفضلهم، فسجَّل لهم هذه

١. رحلة ابن جبير : ١١٠ .
٢. البتنوني، المرجع السابق : ٤٩ .
٣. رحلة ابن بطوطة ١ : ٣٨٧ .

المأثرة، شهادة من ذلك الرحّالة الكونيّ الكبير أمام التاريخ:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامَّة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء والمنقطعين والمجاورين، ويستدعيهم بتلطُّف ورفق وحسن خُلُق ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ النّاس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكلّ واحد منهم ما قسم له، ولا يردُّهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النَّفس بذلك من غير ضجر.

ومن أفعالهم الحسنة أنَّ الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كلّ واحد منهم قفتان كبرى وصغرى... فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيِّأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يُذكَر أنَّ أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قطّ بل يؤدي ما حمل على أتمّ الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس»![1]

١. المرجع السابق ١ : ٣٨٧ .